بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

بقلم الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي

ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما شئتَ من شيء بعد ، وصلاة وسلاما على رحمتك المهداة ، ونعمتك المسداة ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومَن اتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(وبعد)

فقد اقترح عليَّ عدد من الإخوة والأصدقاء في قطر وفي مصر وفي غيرهما ، ومنهم الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن مدير مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد ، وأعضاء المركز ، ورابطة تلاميذ القرضاوي ، وغيرهم : أن تُجمع أفكاري ومواقفي وبياناتي وخطبي وفتاواي ، حول ثورة مصر الشبابية التحريرية الكبرى ، التي عُرفت بثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م ، والتي اتَّخذت ميدان التحرير بالقاهرة مقرًّا لها ، مع مقارِّها في سائر محافظات مصر ، والتي انتهت بالنصر في ١١ فبراير ٢٠١١م .

وكان موقفي من الثورة ومساندتها بالأدلة الشرعية القوية الواضحة ، قد أصبح شائعا ومعروفا ومدويا ، حتى جعل بعض الكتاب الموالين للنظام البائد والفاسد والمستبد ، والتى كانت لهم معي بعض الصلات الودية الخفيفة ، يسارعون بإعلان البراءة من هذه الصلة ، كما فعل مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين ، فى عموده اليومي بالأهرام ، حيث جهر ببراءته من صداقتي التى كان يعتز بها ، وهو اليوم يبرأ منها . وما هي إلا أيام قليلة حتى هاجمه الصحفيون ، وأخرجوه من مكتبه ، ولم يعد له حول أو طول . وبقيت في موقعي أشد قوة ، وأسمع صوتا . ولله الحمد .

وقال الإخوة : إن مواقفك في تأييد هذه الثورة ومساندتها ، والاحتجاج لها ، والدفاع عنها من أول يوم ، من الوضوح والقوَّة والتنوُّع والكثرة ، بحيث لا تخطئها عين ، ولا تنكرها أذن ، ولا يجحدها مراقب ، ولكن من الخير أن نجمعها ونوثِّقها ، ونقرِّبها للناس ، حتى لا يأتي بعد ذلك مَن يحاول أن يخطفها أو يجحدها أو يُزوِّرها ويدَّعيها لنفسه ، أو لفلان وعلاَّن من الناس ، ممَّن ليس له في الثورة نقير ولا قطمير ، ولا هو في العير ولا في النفير .

أسباب مهمة :

وكنتُ مترددًا في أول الأمر ، ولكن بالمناقشة والتأمُّل ، تبيَّن لي صواب هذا الأمر ، لعدَّة أسباب :

أولها : أهمية التوثيق :

أهمية التوثيق ، وهو الآن سهل ، ومصادره موفورة ، من وسائل الإعلام ، ومن الشباب الذين شاركوا في صنع الثورة ، ومَن ناصرهم .

وهذا التوثيق مهم للمؤرِّخ الذي يكتب بعد ذلك ، في تاريخ هذه الثورة والعناصر المؤثِّرة في نجاحها ، والعقبات التي وقفت في طريقها ، والذين حاربوها بفتاويهم ومقالاتهم ومناوراتهم ، والذين دافعوا عنها .

كما أن هذا التوثيق مهم لي أنا شخصيا ، فقد أنسى هذه المواقف وتختلط في ذاكرتي ، وتضيع معالمها ، فمن الخير أن أسجِّلها مجتمعة .

ولقد أتيح لي في زيارتي لمصر لجمعة النصر أن ألتقي ببضعة عشر شابًّا ، ممَّنْ شاركوا في صنع الثورة من أول يوم ، إلى أن حقَّق الله النصر ، وقد زاروني في منزلي ، وحدَّثوني بصراحة وصدق ، وكيف مرَّت عليهم ساعات كاد يصيبهم الإحباط ، وكيف كانت كلماتي وبياناتي وخطبي وأدعيتي ومواقفي تمدُّهم بعزائم ونفحات وبيِّنات ، تشدُّ أزرهم ، وتسند ظهرهم ، وتقوِّي حججهم ، وتفتح لهم أبواب الأمل والرجاء .

ومما ذكروه لي ما رأوه بأعينهم في يوم الجمعة ، الذي أعلنتُ قبله فتواي بفرضيَّة ذهاب كلِّ مسلم لا عذر له إلى ميدان التحرير ؛ لمساندة إخوانه هناك ، وتقوية ظهورهم ، بعد الفتاوى الشهيرة التي حاولت صرف الناس من حولهم ، وصد الشباب عنهم ، وكيف شاهدوا أثر تلك الفتوى ، منذ الليل يأتيهم الناس من كلِّ فج عميق ، حتى صلاة الجمعة ، وكان هذا فتحا من الله انجلت به غشاوة الإحباط والقنوط .

وفي يوم الجمعة ١١ فبراير ـ وقد أصاب الناس اليأس بعد خطاب مبارك ـ حين شاهدنا وسمعنا خطبتك في الشاشات الموزَّعة في الميدان ، وأنت تقسم إن الثورة منتصرة ، ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (الصافات:١٧٢،١٧٣) ، دخل علينا يقين أن الثورة غالبة .

قالوا : ولا زلنا نذكر أوَّل خطاب لك لمبارك في أوائل الثورة ، وأنت تقول له بكلِّ قوَّة : ارحل يا مبارك على رجليْك ، قبل أن يُجبرك الشعب على الرحيل رغم أنفك .

الحقُّ أنّ الله تعالى جنَّدك لتحرس هذه الثورة ، وتدافع عنها ببيانِك وعلمك ، في مواجهة مَن أرادوا اغتيالها في مهدها ، ولولا تجنيد الله لك ما بلغتْ مداها

لقد كان هؤلاء الشباب الأطهار يحدثونني ودموعي تسيل على خدودي ؛ فرحا بفضل الله ونعمته عليَّ ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣) ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس:٥٨) ، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:١١) .

ثانيها : أخذ الأجيال العبرة :

أن تأخذ الأجيال العبرة من هذه الثورة المعلِّمة ، وما تركته من رصيد تربوي للأجيال المصرية ، وغير المصرية أيضا ، حيث كانت الثمانية عشر يوما في ميدان التحرير ، مدرسة في تعليم الإيثار والبذل والتضحية ، بعد أن كان هؤلاء المعتصمون مثلا يُحتذى في الصبر والاحتمال وحسن السلوك ، لم يعتدِ واحد على الآخر ، لم يُعاكس شاب فتاة ، ولم يختصم زميل مع زميله ، بل يجوع الواحد

ليشبع أخوه ، ويعرى ليتغطّى أخوه ، ويعرِّض صدره للرصاص ليحمي أخاه ، وخصوصا في أوقات الشدائد ، مثل يوم وقعة البغال والجمال والخيول ، ويوم إحاطة القناصَّة بالميدان ، يقتلون الناس بغير حساب .

لقد عد الراصدون الناس في ميادين التحرير بالقاهرة والمحافظات بحوالى ١٨ ثمانية عشر مليونًا من المصريين عدا الذين لم تصل إليهم عدسات المصورين في القرى والمدن الصغيرة .

وقد قالوا عن ثورة أمريكا : إنها ٢٠٠,٠٠٠ مئتا ألف ، يعبرون عن مائتي مليون . فكيف بثمانية عشر مليونا يعبرون عن خمسة وثمانين مليونا؟!

وأود أن أبين هنا : أن الثورة حدث كبير، يقوم به شعب من الشعوب ، معبرا عن آماله وأهدافه ، رغم مناوأة الحكومة لقيامه ومحاولتها لكسر إرادته ، وتضليل فكره ، وتصديها بكل ما تملكه من قوة لإخمادها ، وإطفاء شرارتها ، وهو يأبى أن ينكسر حده ، أو يتأخر فجره . حتى ننتصر في النهاية .

ما بين بدء الثورة وانتصارها أحداث عظام ، ومواقف كبيرة ، وأرواح شهداء وجراحات ، وخسائر ومكاسب ، يعرفها الذين عاشوها وخاضوها ، وقد ينكرها من لم يعايشها ولم يمارسها ، وإنما تفرج عليها من بعيد ، وما أعظم الفرق بين المتفرج والذي يعيش في قلب الحدث ، ويتحمل أعباءه في الليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس .

كانت هناك ثمانية عشر يوما ، هي عمر الثورة المصرية الشعبية الكبرى ، حين ولدت في ٢٥ يناير ٢٠١١م وحتى انتهت ، وآذن فجرها في منتصف ليلة ١٢فبراير ٢٠١١م.

لم تكن ثورة شعب مصر مجرد مناوشة ومهاوشة ، بل كانت مدرسة جامعة معلّمة ، بكل ما فيها ، وبكل من فيها ، ورأى الناس في ساحاتها من دروس التربية ، ومعالم التوجيه ، وروائع الإيمان ، ومكارم الأخلاق ، وروائع التسامح ، ما أصبح وحده تاريخًا عظيمًا جديدًا يدرس للأجيال الحاضرة والقادمة .

ثالثها : تقديم فقه الثورة للأمة :

انتهاز هذه الفرصة لتقديم (فقه الثورة) أو (فقه الثورات) للأمة ، من خلال هذه التجربة العملية ، التي دخل فيها بعض مشايخ الدين ، دخولا كاد يضلِّل شباب الثورة عن طريقهم الصحيح ، حين زعموا أنهم ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف:١٠٤) ، وأنهم أيقظوا الفتنة النائمة ، ولعن الله مَن أيقظها ، وأنهم وقفوا ضدَّ الشرعية ، وأنهم يدعون إلى الفوضى وعدم الاستقرار ، وأنهم . . . وأنهم . . . لولا أن الله ألهمنا أن نردَّ هذه المتشابهات بالمحكمات البيِّنات . والحقُّ أبلج والباطل لجلج ، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الرعد:١٧) .

لقد أدرك الدارسون والمراقبون للثورة من أول أيامها ، أن أشدَّ الأخطار عليها ، ما تُثيره المؤسسة الدينية الرسمية حولها من شبهات ، بل ما توجَّه إليها من اتهامات ، من الخروج على ولي الأمر الشرعي ، والدعوة إلى الفتنة ، وإثارة الفوضى ، وحمل فكر الخوارج ، الذين يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة .

ونحن أمة دينية تؤثِّر فيها كلمة الدين ، والرأي الشرعي أكثر من أيِّ شيء آخر .

وساند الرأي الرسمي كثير من الفئات الشعبية ، من السلفيين[1] والصوفيين ، الذين اتَّفقوا في هذا الموضع ، رغم الاختلاف الدائم بينهما .

لهذا كان رأي القرضاوي الذي دافع عن شباب الثورة ، وحقَّهم في التظاهر السلمي ، وهو نوع من الجهاد بالكلمة ، « أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان

---

(١) ولكي أكون منصفا ، لا بد أن أذكر أني عرفت أن هناك من السلفيين من وقف مع شباب الثورة ، مثل الشيخ محمد عبد المقصود ، والشيخ محمد إسماعيل المقدم ، والشيخ محمد حسان شارك في بعض الأوقات ، وهو رجل عرفته في قطر ، واضح الوجهة ، صادق النظرة .

جائر»[1]، وغير ذلك من النصوص، كان أمضى سلاح، وأقوى درع تدافع به الثورة عن نفسها.

ومن بركات الفقه الذي أشاعته الثورة وثبَّتته، ما قلناه وكرَّرناه بين الناس: وهو تحريم قتل المتظاهرين والمحتجِّين المسالمين، فمَن أطلق الرصاص على واحد منهم لا يحمل سلاحا، فقد ارتكب كبيرة من أعظم الكبائر، وهو مستوجب للعنة الله وغضبه، وأعدَّ له عذابا عظيما. ولا يعفيه من الإثم أن يصدر إليه الأمر من رئيسه المباشر؛ لأن رئيسه يخالف القانون، ويخالف الشرع، إذ لا يوجد قانون يجيز إطلاق الرصاص على مسالم، وقول الشخص: أنا عبد مأمور. ليس عذرا له. وفي الحديث الصحيح: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[2].

رابعها: تصبح مفاهيم أخطأ الكثيرون فهمها:

تصحيح مفاهيم مغلوطة لدى كثير من الناس، تكونت بالوهم لا بالبيِّنة والبرهان، مثل ما نسج حول نزولي إلى القاهرة لإلقاء خطبة (جمعة النصر) في ميدان التحرير، التي استقبلها كلُّ (أبناء مصر) مسلمين ومسيحيين، بالترحيب والتهليل والتكبير، كما شهد بذلك الملايين، وما قاله مَن قال من تشبيه ذلك بعودة الخميني إلى طهران.

وقد ذكر الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل الذي أثنى على مضمون خطبتي ـ وهو رجل أحترم قلمه ورأيه السياسي، وقد رحبت به، وصافحته وعانقته بحرارة حينما زار قطر، وصرح بذلك لأصدقائي فهمى هويدي ومحمد سليم العوا. فليس بيني وبينه أى خصومة ـ أني أقحمت نفسي على الثورة، مع أني لم أشترك فيها،

---

(١) رواه أحمد (١٨٨٢٨) وقال مخرجوه: إسناده صحيح، والنسائي في البيعة (٤٢٠٩)، عن طارق بن شهاب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩) عن ابن عمر.

ولم أكن من رموزها ، وكان أحرى بي أن أبتعد عن مسرحها! ويؤسفني جدًّا أن أسمع هذا الكلام من هيكل ، برغم أنه يعتبر نفسه مؤرِّخا للحركة السياسية في مصر ، فإذا كانت هذه رؤيته ، فإنها رؤية بائسة قاصرة وعاجزة عن رؤية العناصر الحقيقية والأساسية ، التي كان لها دورها في إشعال الثورة ، وفي تثبيت الثورة ضدَّ مَن أراد اغتيالها بالفتاوى الشرعية ، والبيانات الدينية ، حتى من كبار شيوخ الأزهر ومفتي مصر ، وكثير من السلفيين والصوفيين ، وقد علم الناس وشباب الثورة أنفسهم : مَن الذي وقف بقوَّة وأصالة في وجه هذه الحملة الظالمة ، ومن أبطل هذه الفتاوى بالبيانات والأدلَّة ، ودافع عن الثورة وشبابها ومواقفهم؟

كنتُ أودُّ أن تكون دراسة هيكل للثورة وجذورها وأسبابها العميقة ، وشيوخها المحرِّكين لها ، ومراجعها الأصلية ، التي يستندون إليها ، ويعولون عليها ، بدل نظرته السطحية ، التي تنظر من بعيد ، ولا تكاد ترى شيئا! وأحمد الله أن أبناء الشعب المصري عامَّة ، كانوا أصدق حسًّا وأكثر وعيا بدوري وموقفي من الأستاذ هيكل . لقد عرَفوا موقفي ، وشهدوا به ، وعبَّروا عنه ، ولله الفضل والمنَّة .

وقد تجلَّى ذلك بكلِّ وضوح في يوم جمعة النصر ، وفي استقبال شباب ميدان التحرير ، كلِّ الشباب ـ وهم بالملايين ـ للقرضاوي وتحيَّته التي استمرَّت لدقائق ، وهذا مسجَّل في القنوات المصرية والجزيرة وغيرها .

وقد قال لي هؤلاء الشباب من صناع الثورة : نريد أن نُسرَّ إليك بحقيقة لمسناها بأنفسنا ، وهي أن العدد الذي زاد على أربعة ملايين في ميدان التحرير يوم جمعة النصر ، منهم عدد كبير جاء من أجلك ، والاستماع إليك ، من الإسكندرية والغربية وسائر محافظات الوجه البحري والصعيد .

ويبدو أن هيكل ـ والمفروض أنه يقوم بدور المؤرِّخ ـ لم يتابع دور القرضاوي في الثورات العربية كلِّها ، في تونس ومصر واليمن وليبيا وسوريا ، حتى سمَّاه بعضهم (أبو الثورات) .

ولقد أنصف الكاتب المعروف الأستاذ قطب العربي ، حين ردَّ على هيكل بالمنطق القوي ، الذي لم يجد معه ما يقوله .

والحقيقة التي يعرفها كثيرون من المشاركين في الثورة ، حتى من غير الإخوان : أني عزمتُ على الحضور للمشاركة في ميدان التحرير ، رغم ظروفي الصحيَّة ، قبل ذلك بأسبوعين ، ولكن الإخوة في مصر من الإخوان وغيرهم ، نصحوني ألا أحضر الآن ، حتى لا يتخذ حضوري لحسبان الثورة على الإسلاميين عامة ، وعلى الإخوان خاصة . وهي الفزَّاعة التي يفزِّعون بها الغرب ، وقد استجبتُ لهم .

خامسها : استجابتي للكثيرين من رجال العرب :

كان الإخوة القائمون بأمر الجهاد في العالم العربي ، مهتمين دائما بموقفي ، وضرورة التنبُّه له ، والتنبيه عليه ، والتمسُّك به ، من أمثال أبي الوليد خالد مشعل ، ورمضان عبد الله شلّح ، ومنير شفيق ، وبشير نافع ، ومَن سار على دربهم من الفلسطينيين وغيرهم من أبناء العروبة والإسلام .

وقد اتَّصَلَ بي عدد منهم أكثر من مرَّة ، يريدوني أن أخطب الجمعة في ميدان التحرير ، فكنتُ لا أريد أن أفرض وجودي فرضا على الشباب الموجودين في ميدان التحرير ، واتَّصِلُ ببعض القيادات ، مثل : الدكتور محمد سليم العوا ، والدكتور عبد المنعم أبو الفتوح ، والدكتور عصام العريان ، والدكتور محمد البلتاجي ، وعبد الرحمن يوسف ابني ، فيتحدَّثون بعضهم مع بعض ، ومع إخوانهم ، فترى الأغلبية التأجيل إلى حين . كما اتفقت مع رجال (الجزيرة) الأوائل الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني ، والسيد وضاح خنفر لوضع الجزيرة في خدمة المرحلة وما تتطلبه من مواقف .

إلى أن جاءت الجمعة الفاصلة ، التي توافق فيها الإخوة في مصر على ضرورة حضوري ، وأعتقد أن الخير كان فيما اختاره الله ، فهذه الجمعة هي أول جمعة بعد إعلان النتيجة بتنحّي مبارك في آخر الجمعة الماضية ، ولا بدَّ أن نتهيَّأ للسفر لها من الدوحة .

ولم أكن أعرف مَن الذي سيتهيَّأ لها معي ، حتى أخبرني محمد ابني الأكبر أنه سيسافر معي ، ثم فوجئت حين ركبت الطائرة بأن ابنتي إلهام موجودة للسفر هي

وزوجها الدكتور أحمد مكي ، وابنته أميرة ، وابنه يوسف ، فقد وجدوا أماكن في الطائرة القطرية ، فحجزوا ، وتوكلوا على الله . كما حجزوا في القاهرة في فندق سميراميس حيث يكون مَن هناك كأنما هو في صدر الموقع .

موقف أسرتي من قضية الثورة المصرية :

ولابد لي أن أحدث الأخوة في كل مكان عن موقف أسرتي ودورهم في نصرة الثورة .

ولعل أول ما يخطر ببالي من أفراد أسرتي هو ابني عبد الرحمن ، الذي اشتغل بهذه القضية من قديم ، وتفرغ لها ، وأعطاها من أدبه وشعره الكثير ، ونشر ستة دواوين ، باسمه عبد الرحمن يوسف ، دون أن يذكر القرضاوي ، حتى لا يقال : إنه استفاد من اسم أبيه ، وله ديوان سابع نشره بغير اسمه (عامر شديد) لما فيه من قصائد شديدة ضد مبارك ، ولا غرو إن أطلق عليه الشبان : شاعر الثورة !

ولما ظهر الدكتور البرادعى بثوبه السياسي ، أيده عبد الرحمن بشعره ونثره ، ورشحه بقوة ليحمل الراية ، وقد استجاب له ، وكلف عبد الرحمن من المجموعة بأن يمسك الأمانة ، ولم يزل كذلك حتى استقال منها ، وسلمها لزميله في المجموعة ، وإن بقي فيها عاملا نشيطا .

كان عبد الرحمن من أوائل الذين اشتركوا في الثورة من أول يوم ، وهو من القيادات الشبابية التي وقع عليه الاختيار للتواصل الدائم مع الأمة ، وطالما جلس معي قبل الثورة ، يتحدث عن أحلامه في الثورة ، وعن سقوط مبارك ، قبل أن يسقط ، ويقرأ على من شعره ما يؤيد ذلك . وقد طلبوه في الداخلية وساءلوه .

عبد الرحمن هو الابن الذكري الأوسط ، أما ابني الأكبر ، فهو محمد ، الذي يعيش معي في قطر ، وقد درس دكتوراه الهندسة في أمريكا ، ويعمل أستاذا مساعدا بكلية الهندسة في جامعة قطر ، وهو ثورى بطبيعة شخصيته ، وهو مع العاملين في قطر من أجل الثورة ، وكل قطر عاملة من أجل الثورة ، من الأمير فمن دونه ، وهو فى صحبتي إلى مصر .

وأسامة ابنى الأصغر ، يعمل مستشارا للسفارة القطرية في القاهرة ، فهو يتصل بالجامعة العربية ، وبدولة قطر ، ويعيش في قلب المعمعة ، وهو في استقبالي عند نزول مصر . وقد كان حريصا منذ ٢٥ يناير أول أيام الثورة أن أصدر بيانا لتأييد الشباب ، حتى اتصل بي مندوب جريدة (الشروق) يوم ٢٧ فصدر بياني الأول يوم الجمعة ٢٨ في جمعة الغضب .

وأما بناتي الأربع ، فكلهن مع الثورة ، يزغردن إذا ابتسمت ، ويبكين إذا ضيق عليها ، وها هي إلهام الكبرى ، مع زوجها دكتور أحمد سيف الإسلام مكي ، وابنها يوسف ، وابنتها أميرة ، يسافرون جميعا معي إلى القاهرة .

أما ابنتي سهام ، وزوجها دكتور هشام عبد العليم ، فقد كانا أيضا مشغولين بالقضية المصرية ، لكنهما لا يقدران على أي حركة يقومان بها ، فهما غريقان في مشروعهما الذي استغرق كل جهدهما في تلك المدة ، مشروع (الفيلاّ) السكنية . أما أولادهما فليس معهما إلا الابنة الصغرى ضحى ، وهى تدرس بكليتها في مؤسسة قطر ، أما ابنتهما الكبرى فهي مع زوجها في أمريكا ، وابنهما الأكبر عمر يدرس دراسته الجامعية في أمريكا ، ويوشك أن يتم دراسته ، وسها وعمر يؤديان واجبهما نحو قضية مصر بما يؤديه إخوانهما وأخواتهما في الديار الأمريكية .

وعلا وزوجها المهندس حسام خلف ، وبنتهما تقى ، في قلب الثورة من أول يوم ، وحسام عضو مؤسس في حزب الوسط ، ومن قياداته العملية والميدانية .

وأما ابنتي الصغرى أسماء ، وابنتها يسر ، فقد كانتا في مصر عند ذهابي إليها فقد سبقتنى أسماء إلى مصر ، بحثا عن زوجها الشاب المكافح ، دكتور هشام مرسي ، الذي رفض أن يعيش في الدوحة ، وإخوانه في ميدان التحرير ، يجري لهم ما يجري ، وقد كتب مع إخوة له فيما كتبوا عن هذه الثورات ، وكيف تقوم ، فقطع تذكرته ، وذهب لينضم إليهم في مواقعهم ، في اليوم الرابع من الثورة ، ومعه وسائله من الأوراق والتليفونات العالمية التى يستطيع بها التواصل مع أنحاء العالم .

وبعد أن قام هشام بأداء واجبه في الحركة والاتصال ، مع إخوانه ومعارفه في ميدان التحرير ، وأخبر أقاربه بأنه في طريقه إلى العودة ، وأنه جائع جدا ، في هذا الوقت انقطعت أخبار هشام ، وقد تبين أنه قبض عليه من قبل الجيش ، وأودع السجن ، ولم يصب بأذى ، إلا ما قطع عن العالم من حوله ، وتغشية عينيه بغشاوة عند التحقيق معه ، وظل معتقلا مدة أسبوعين ، حقق معه في أولهما ، ثم ترك ونحن لا نعلم عنه شيئا وهوما اضطر ابنتي أسماء ، وابنتهما يسر لتسافرا إلى مصر ، لتحاولا أن تعرفا أين هو ؟ وأخيرا قرر الذين اعتقلوه أو اختطفوه أن يخلوا سبيله ، وعاد هشام إلى أهله وحياته الطبيعية ، ولكن بعد أن انقضت الثورة ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، وقد انضموا ثلاثتهم إلى ركب قافلتنا .

وفي يوم الخميس السابق للجمعة مباشرة ، وصلنا إلى مطار القاهرة ، فاستقبلنا أسامة ابني الذي يعمل في سفارة قطر بمصر ، ومعه كبار القوم ، ويسَّروا لنا الأمور ، وكان عبد الرحمن ابني مدعوا خارج القاهرة يومها ، وسرعان ما اتصل بي الدكتور محمد سليم العوا ، والدكتور عبد المنعم أبو الفتوح ، والدكتور إبراهيم تاج ، والدكتور صفوت حجازي ، وطمأنوني أن الأمور تسير على خير ، وأن عليَّ أن أستقرَّ في مكاني ، وكلُّ شيء سيرتب إن شاء الله على أحسن ما يرام .

طمأنوني على أني سأذهب في الصباح مع أبنائي محمد وأسامة ، وهشام زوج ابنتي في سيارة صغيرة ، وأن بنتي أسماء وبنتها ، ومعها ابنتي علا وزوجها حسام وبنتها تقى ، وآخرين مرافقين لهم ، سيذهبون في (باص) صغير ، إلى المكان المعروف . وسأكون أنا وابنى محمد وهشام قريبا من الدكتور محمد بلتاجي .

وعندما وصلنا إلى قرب المكان ، اضطررنا أن ننزل من السيارة ، ويحوط بنا الشباب الذين كانوا ينتظروننا ، وبعد التكبير والتهليل والتحميد ، وصلوا بنا إلى المنصة ، التي أقيمت في قلب ميدان التحرير ، وما أن رآني الناس على المنصة حتى ارتفعت صيحات التكبير والاستبشار ، واضطررت أن أقف مواجها للناس في كلِّ الجهات الممكنه ، محييا ومكبِّرا ومشيرا ، والناس كذلك ، حتى أُشير إلى الناس أن يصمتوا ، ويتبعوا الأوامر والتوجيهات من المنصة .

وكان من حولي الدكتور البلتاجي ، والدكتور حجازي ، والشيخ محمد جبريل ، والشيخ مظهر شاهين ، الذي خطب الجمعة الماضية وغيرهم .

وكان الميدان شيئا كبيرًا حقًّا ، أرى أوله من عندي ، ولا أرى آخره ، أرى يميني يتجه شرقا إلى (الإسعاف) ولا أرى له آخرا ، وأرى يساري يتجه إلى ناحية القصر العيني ، ولا أرى آخره أيضًا ، وأرى أمامي النيل ، وكوبري قصر النيل ، والناس يقفون عليه ، ويمتدون فيه ، ولا أعرف أين يقف آخرهم .

هذه ثالث مرة أو رابع مرة أقف فيها أمام هذه الجموع الحاشدة .

أول مرة كان في السبعينيات في صلوات الأعياد ، التي بلغ أعلاها نصف مليون في عيد الفطر في ميدان عابدين بالقاهرة الذي قدروا العدد فيه بنصف مليون . وتحدث عنه الرئيس السادات بأنهم يقولون عنه : ربع مليون ، وهو ليس أكثر من مائة ألف!

وبعد ذلك صليت صلاة جنازة في مدينة لاهور بباكستان ، حيث أكثر من مليون ، في أكبر ملعب فيها ؛ وذلك في صلاة جنازة الإمام المودودي ، وقد ذهبنا إلى هناك ، حيث صلينا وصلى معنا الرئيس الباكستاني ضياء الحق ، واختارني العلماء الحاضرون من البلاد المختلفة للقيام بالصلاة على الرجل الكبير .

وبعد ذلك أتيح لي أن أشارك في مهرجان هندي للاحتفال المئوي لمرور مائة عام لمهرجان جامعة الهند الشهيرة (ديوبند) وقد ذهب إليها نحو مليونين من البشر وقد افتتحته رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي . وكان لي ولغيري من العلماء كلمات .

ثم كان هذا المؤتمر الرابع الذي قدره بعضهم بثلاثة ملايين ، وبعضهم بأربعة ملايين ، وبعضهم بأكثر من ذلك .

سادسها : معرفة الجماهير من معها ومن عليها :

من المهم أن تتميَّز لدى جماهير الأمة مَن ناصر حقَّها ممَّن خذلها ، مَن سار في ركاب الظالمين إلى نهاية الشوط ، ثم ألحق نفسه بالثورة كأنه من أبطالها ، ومَن رفع راية الحقِّ من أول يوم .

ولقد أخبرني بعض الشباب أن بعض الذين يتكلَّمون باسم الدين ، ظلُّوا يناصرون الظالمين وأعوانهم إلى آخر يوم ، حتى قال أحدهم : حسني مبارك حفظه الله !! وحبيب العادلي دام ظلُّه !!

والعجيب أنه في اليوم التالي لسقوط الطاغية ، خلع ثوب المدَّاحين والمطبِّلين لفرعون وهامان ولبس ثوبا آخر ، دخل به ميدان التحرير ، كأنه من صنَّاع الثورة !! وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحي فافعل ما شئتَ »[1].

وإني لأحمد الله تباركت آلاؤه ، وتعالت أسماؤه ؛ أن وفَّقني للوقوف مع الحقِّ الناصع ، مع هذه الثورات كلِّها ، لم أتردَّد ولم أتلعثم منذ ثورة تونس ، فثورة مصر ، وثورة اليمن ، وثورة ليبيا ، وثورة سورية ، وكلُّ ثورة تتحدَّث باسم الشعب ، وباسم الحقِّ والعدل إن شاء الله . ولقد نذرت نفسي لنصرة هذه الثورات ، وإن جلبت عليَّ ما جلبت .

ولقد حذَّرني بعض مَن أعرف حين كانت ثورة مصر : أني أجازف بنفسي وبمستقبلي في أمر مجهول المصير ، وإذا تعرَّضت هذه الثورة للإخفاق والفشل ، فإن الأمر جدُّ خطير .

فقلتُ لصاحبي : الأمر عندي أمر مبادئ وقيم ، لا أمر مصالح ومساومات ، فقد اتَّضح الحقُّ لي ، فلن أتخلَّى عنه ، ولو بذلتُ عمري فيه ، وما بقي من عمري إلا القليل ، ووالله ما أستبدل الباطل بالحقِّ ، ولا أبيع الدين بالدنيا ، ولا أشتري بآيات الله ثمنا قليلا .

ولقد ساءني أن أجد أحد إخواني وتلاميذي ممَّن كانوا في قطر سنين طويلة ، ثم رجع إلى مصر ، اتَّصل بي وقال لي : كيف تناصر ثورة تعمل من أجل البرادعي؟

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣) ، وأحمد (١٧١٠٧) ، عن أبي مسعود عقبة ابن عمرو.

قلتُ له : أنا لا أناصر ثورة تعمل من أجل البرادعي ولا غيره ، ولكن أناصر ثورة تعمل على إسقاط نظام ظالم فاسد ؛ نظام ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴾ (الفجر:١١،١٢) ، نظام حسني مبارك وزبانيته ولصوصه وأمنه وبلطجيَّته ، ومَن توقَّف - وهو قادر - عن تأييد هذه الثورة فهو من القاعدين الآثمين ، على الأقل تأييدها بالكلام والتشجيع والدعاء .

إن هذه الثورة ، ثورة مصر كلِّها ، وليست ثورة البرادعي ولا غيره ، على أن البرادعي أو غيره هو خير من مبارك ، المهم أن يأتي نتيجة انتخاب حرٍّ لا مزوَّر تزويرا مكشوفا ، كما رأينا في الانتخابات الأخيرة في مصر .

ولا أكتم القراء : أن بعض إخواني الثقات ، نقل إليَّ وهو يرتجف : أن بعض الجهات التي اشتعلت فيها الثورة تبيَّت لي كيدا ، وتدبِّر لي أمرا ؛ لأنهم يعتبرونني مسؤولا مسؤولية أولية عن قيام الثورة ، أو على الأقل عن استمرارها وثباتها .

وقالوا لي : يجب أن تحتاط لنفسك ، وتأخذ حذرك ، وقد علَّمتنا وجوب الأخذ بالأسباب ، وأنه لا ينافي التوكل ، وقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾ (النساء:٧١) ، وقد اختفى النبي ﷺ من المشركين في الغار ، واتَّخذ الحرَّاس ، ولبس الدروع ، وحفر الخندق وقاية من اقتحام المشركين ، وتداوى وأمر بالتداوي ، ولك فيه أسوة حسنة .

قلتُ : نأخذ الحذر كما أُمرنا ، ونتقي الأعداء ما استطعنا ، ونقتدي برسولنا الكريم ، وهو نعم الأسوة : وإن كان الحذر لا يغني من القدر ، ونقرأ : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة:٥١،٥٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:٥٤) ، ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النمل:٥٠) ، ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ (الطارق:١٥-١٧) .

وقد أخذت دولة قطر الأمر بجد ، وأمرت بتشديد الحراسة عليَّ أكثر من قبل ، جزاهم الله خيرا . ووالله إن ما يحاولون منعي منه لهو أحب إلي وأقرب إلى نفسى ، وما قضى الله فهو غالب .

وشاء الله أن تصيبنى في هذا الوقت وعكة صحية شغلتنى عن نفسي وصحبى وعملى ، فتركت هذا الكتاب لإخواني في المكتب يكملونه ، داعيا لهم بالتوفيق .

ومما أحمد الله عليه : أن ظهر في هذا الوقت ، وقت مراجعة الطبعة الأولى لكتابي : كتابُ أخي الحبيب ، وابني المتميز الدكتور وصفي عاشور أبو زيد ، الفقيه الأصولي ، ورجل المقاصد (القرضاوي الإمام الثائر : دراسة تحليلية أصولية في معالم اجتهاده للثورة المصرية) ، وهو ما لم أكن أتوقعه منه ، فلله الفضل والمنة .

هذا وقد ظهر الكتاب فى أقسام ثلاثة :

القسم الأول والأساس فى الكتاب : يتضمن أقوالي المرتجلة ، مثل خطب الجمعة ، وخطب الاحتفالات ، وإجاباتي في برنامج (الشريعة والحياة) وعلى أسئلة الصحف والتلفاز وبياناتي وفتاواي وأجوبتي المكتوبة حول الثورة . مثل الأشياء التي كتبتها بقلمي ، مثل بيانات الاتحاد العالمي التي تبنتها ، وبياناتي الشخصية التي أصدرتها ، وفتاواي التي سطرتها ونحوها ، وبعضها نقلتها من كتبي في الموضوع ، أو حوله .

والقسم الثاني : أخبار ومقالات من الأعلاميين والدعاة والصحفيين وأمثالهم .

والقسم الثالث : هو مجموعة من الصور الفوتوغرافية . والحمد لله رب العالمين .

على أن ما ندعو به الله جلَّ وعلا : أن يختم لنا بشهادة خالصة في سبيله ، يغفر لنا بها ما مضى من ذنوبنا ، ويكفِّر عنا سيئاتنا ، ويتوفَّانا مع الأبرار .

اللهم اجعل خير أعمارنا أواخرها ، وخير أعمالنا خواتمها ، وخير أيامنا يوم نلقاك ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠). ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم: ٨) .

رجب ١٤٣١
مايو ٢٠١١

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي